اللغة ظاهرة فطرية ومكتسبة :

تنوعت الاتجاهات الفكرية التي حاولت البت بشأن الأصل الذي نشأت منه اللغة البشرية ، أهي فطرية غريزية في وجود الإنسان ، أم هي نتاج مكتسب ، جراء تطور المادة الحية عبر ملايين السنين؟ وقد تنوعت هذه الاتجاهات تبعاً لمناهجها الدينية والأنثربولوجية والفزيولوجية والنفسية ، إلا أن هناك اتجاهاً يرى عدم إمكانية التوصل إلى نتائج نهائية عن نشأة اللغة ، مؤكداً أن البحث في هذا الأمر لا فائدة منه ، لذلك تجنب عدد من علماء اللسانيات والأجناس إثارة مشكلة أصل اللغة البشرية ، مكتفين ببحث عناصرها الصوتية والنحوية والدلالية ، وموازنة مساراتها التطورية بين الثقافات والجماعات السكانية.

في حين شغلت مسألة الفطري والمكتسب في اللغة اليوم اهتمام عددٍ كبيرٍ من المفكرين والعلماء واللسانيين، الذين يبحثون في أصل اللغة الإنسانية وفي ماهيتها وهم في سياق أبحاثهم هذه يستنفرون الجهد في مجال الكشف عن الاصول الاولى للغة والإبداع اللغوي ، ومدى تأثير الفطرة والاكتساب في تشكلها في مستوى الفرد وفي مستوى الجماعة ، وأن اللغويون القدماء يعتقدون أن اللغة اصيلة في جبلة الأنسان وفي طينته ، وأن الإنسان كائنٌ ناطقٌ بفطرته ، وعاقلٌ بتكوينه الإنساني ، وكانوا يتساءلون عن اللغة التي يمكن للوليد الانساني أن يتحدثها ، إذا ما أبعد عن تجربة الاتصال بالناس من حوله ، والاحتكاك باللغة السائدة في وسطه ، أعربيةٌ يتكلم أم هنديةٌ أم صينيةُ أم لاتينيةٌ ؟ وكانوا يفترضون وجود لغة فطرية سامية لا تأتي بالاكتساب ولا تتشكل بالتعلم .

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى تجربة أحد فراعنة مصر القدماء الذي حاول أن يختبر الأمر فجمع عينة من الاطفال الرضع ، ومنع عنهم التواصل الاجتماعي والاتصال اللغوي ، ولاسيما كلام المحيطين بهم من مربيات وأمهات ، ليعرف ما اللغة التي يمكنهم أن يتكلموا بها ؟ ولكن يد المنية سرعان ما خطفتهم لأن استمرار الأطفال في الوجود كان دائماً وابداً مرهوناً بما يحتاجون إليه من رعاية وحنان ، وهذا ما تؤكده جميع التجارب التربوية ، فالحب والحنان هما نسغ الوجود الإنساني وعماده ، واللغة أداة هذا الحب وديدنه ، ومن غيرها كما يبدو لا يحيا الإنسان.

وتكررت هذه التجارب في بلدان أخرى ، وفي مراحل مختلفة من التاريخ الإنساني ، وذلك كله للإجابة عن السؤال الوجودي المتعلق بماهية اللغة التي يتكلمها الإنسان قبل أن يتعرض لعملية الاكتساب اللغوي؟ ويمكن الإشارة في هذا الخصوص إلى تجربة الملك (فريدريك الثاني) في القرن الثاني عشر الميلادي التي أجراها حول بعض الأطفال حديثي الولادة والتي انتهت إلى النتيجة عينها التي انتهى إليها الفراعنة ، لقد مات الاطفال قبل أن ينطقوا كلمة واحدة ، لأن الحنان والحب والاتصال مع الاخرين كان عندهم في أهمية الغذاء والطعام .

وشاءت المصادفة التاريخية في مراحل زمنية قريبة جداً أن يتم العثور على أطفال الذئاب في غابة (الايفرون) الفرنسية ، وفي الغابات الهندية ، وهم اطفال عاشوا وترعرعوا في الغابات وفي أوكار الذئاب ، كان هؤلاء الأطفال يسلكون سلوك الذئاب من عواء ومشي على أربع ، وهجوم على الماشية والدجاج ، واستعمال الأنياب في التهام الطعام و ولم تكن المحاولات الكبيرة التي بذلت في تعليمهم مجدية حيث تعلموا بصعوبة كبيرة بعض الكلمات ، وبعض أنماط السلوك الإنساني كالمشي في حالة انتصاب بدلاً من المشي على أقدام أربع.

ومع أهمية هذه التجارب بقي البحث عن أصل اللغة يسجل حضوره في السجالات العلمية الساخنة حيث يذهب بعض المفكرين اليوم إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن الفصل بين المكتسب والفطري في تكوين اللغة الإنسانية ومن هذا المنطلق يجري الجدل بين علماء نفس اللغة غالباً لتحديد الجوانب المكتسبة والجوانب الفطرية في بنية اللغة.

وقد برهنت المعطيات الفزيولوجية للدماغ البشري أن نشوء اللغة قد ارتبط ارتباطاً طبيعياً بتطور المخ والقشرة الدماغية ضمن عمليات التكيف والانتخاب الطبيعي عبر ملايين السنين ، فالأدلة التشريحية المتوافرة في هذا الشأن تؤكد أن دماغ الإنسان القديم كان يفتقر إلى المخ والقشرة الدماغية اللذين يعدان المسؤولين في دماغ الإنسان الحالي عن اكتساب اللغة وإدراكها ونطقها ، إذ إن مناطق اللغة تقع في النصف الأيسر من المخ ، وتحديداً في الفص الأمامي في منطقة (بروكا) وكذلك في مطقة (فرونكا) كما تتوفر في الدماغ الحالي (مناطق الارتباط) المسؤولة عن تحويل الأحاسيس البصرية والسمعية إلى معاني لغوية وبالعكس ، وإن غياب هذه المناطق المسؤولة عن اللغة في دماغ الإنسان القديم ، إنما يدل بوضوع على أن المراكز الفزيولوجية للغة لم تظهر دفعة واحدة ، بل نشأت وتطورت عبر تاريخ وجود الإنسان على الأرض.

وقد أشار الامام علي (عليه السلام) في عددٍ من كلماته إلى القابلية الفطرية للغة ، فحينما وصف خلق الجنين بعد نفخ الروح فيه قال " ثُم مَنحهُ قلباً حافظاً ولساناً لافظاً " وفي هذا القول دليل على فطرية اللغة وأصالتها ، وتعني أن ملكة النطق واحدةٌ . ثم تشعب في افتراض العالم (تشومسكي) لاختلاف اللغات العالمية اختلافاً سطحياً ، وهذا ناتج من انشقاقات وانعكاسات لعلم قواعدي عام وعالمي ،ويمكن أن يكون سبب هذا الاختلاف هو التأثر البيئي ما دام الإمام يقول بتأثير الصفات الجسمية في النفسية عند الإنسان ، فاللغة إذاً ليست من الأمور التي يضعها فرد معين أو أفراد معنيون ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل الافكار ، وكل فردٍ منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقياً بطريقة التعليم والمحاكاة كما يتلقى عنه المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج على النظام اللغوي بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، فإن عمله هذا يصبح ضرباً من ضروب العبث العقيم .

ومن هذا المنطلق يرى تشومسكي ومساعدوه أن اكتساب اللغة مرهونٌ إلى حدً كبيرٍ بالنى اللغوية الفطرية التي توجد في أصل الإنسان ، وأن هذه البنى اللغوية الخاصة تبدأ عملها في مرحلة محددة من النضج ، وهي تزود الطفل بمعلومات مبرمجة مسبقاً على نحوٍ فطري، فالطفل يولد وهو يمتلك بنى فطرية خاصة للغة وهذه البنى تنضج في سياق اللغة التي تحيطه في وسطه الثقافي والاجتماعي ، فالطفل يولد وهو مزود بقدرة فطرية خاصة على تعلم اللغة ، وأن هذه القدرة تميل إلى النشاط بين الشهر الأول من العمر والسنة الخامسة ، ثم تبدأ هذه القدرة بالضمور بعد أن تكون قد أدت الغاية من وجودها .

فجميع الاطفال على وفق نظرية تشومسكي يكونون القواعد اللغوية فطرياً بنحوٍ متجانس ومدهش في الوقت نفسه ، وتنطوي هذه المقولة على افتراضٍ قوامه : أن يولد الطفل يمتلك في داخله علبة وراثية لغوية سوداء ؟ وهذه العلبة هي المعنية في بناء اللحظات الأولى للأداء اللغوي ، ومن ثم تقلل البنية اللغوية من أهمية نشاط الفرد في بناء قواعد لغته كما تقلل من أهمية التأثير الذي يمارسه الوسط الاجتماعي في قابليات الأطفال اللغوية.

وعلى خلاف ذلك ينفي أنصار النزعة البيئية وجود لغوية فطرية عميقة غير قابلة للملاحظة ، وهم لايعطون أية أهمية للاعتبارات الفطرية والوراثية في عملية نمو اللغة واكتسابها فاكتسابها اللغة يتم في نسق من المؤثرات الاجتماعية والتربوية ، والتأثير الاجتماعي هو الذي يمارس دوره في عملية اكتساب اللغة ، وذلك عبر عمليات متكررة ومستمرة ، وأوليات من التعميم والتعزيز وسواها .

يبين جان لاكان في كثرة من أعماله أن اللاشعور الإنساني ركامٌ من المفردات اللغوية ويتأسس على ذلك أن الإنسان كيانٌ لغويٌ يتكون باللغة ومن خلالها ، وهذا يعني أن اللغة هنا شرط للتكوين الإنساني ، وليس العكس كما نلحظ ذلك عند تشومسكي وغيره ، فإذا كان لاشعور الإنسان يتمثل في الخبرات والتجارب التي يعيشها الفرد في مراحل حياته الأولى ، فإن الوسط الاجتماعي يؤدي دوراً فعالاً في عملية تحديد السمات الأساسية للبنية اللغوية عند الأطفال بوصفها لاشعوراً.

فعلم النفس اللغوي عند (جان بياجيه وتشومسكي) وأنصار الوراثة وعلماء اجتماع البيولوجيا يولي أهمية كبيرة للفطرة في تحديد البنى اللغوية الفطرية خاصية مشتركة بين جميع الأطفال الذين يتكلمون لغة واحدة .

إن التباين الذي أتضح من الآراء المذكورة حول مسألة كون اللغة بدءاً ، أهي سلوك فطري أم مكتسب في العقل البشري ، لايتعارض مع حقيقة أن اللغة في وظيفتها الاجتماعية هي انعكاس حي للوجود العاقل المتطور للإنسان ، ومن ثم فإنها بنية حيوية غير ساكنة ، قابلة للتطور على كل المستويات ، سواء المستوى الفزيولوجي العصبي الذي ينتجها مادياً أو المستوى الدلالي الذي تقوم بإنتاجه فكرياً، وبمعنى أكثر تحيداً ، أن الاختلاف حول الأصل الذي نشأت منه اللغة البشرية ، لايلغي الاتفاق حول أن الانسان في كل مراحل تطوره الفردي والاجتماعي والحضاري يظل يكتسب اللغة وينتجها ، إذ لا أهمية لتحديد موقع نقطة البدء فيها ، مادامت هذه الرموز البصرية والسمعية هي وسيلته الرئيسة في ادراك العالم وفهمه والتأثير فيه.